العالم: كيف خلق وكيف تطور؟

بقلم الاستاذ محمد مظهر سعيد

أستاذ علم النفس بمعهد التربية وكلية أصول الدين

بينت في مقال سابق(١) كيف لجأ الانسان في حل معضلة خلق العالم (وسائر معضلاته العقلية) ـ بادىء ذى بدء ـ إلى الأساطير والقصص الخرافية الخيالية التى لا تستند إلى أى أساس علمى أو منطق معقول ، وكيف انتقلت هذه الأساطير عن طريق الوراثة حتى أصبحت عقائد دينية بل كانت هى الدين بذاته ، وكيف كان يلقنها الكهنة ورؤساء الدين الشعب من غير تفسير ؛ واستعرضت طائفة من أساطير سكان استراليا الأصليين وأهل الآسكا والهنود الحمر على اعتبارهم خير ممثل لعقلية الانسان الأول ، وأن أساطيرهم هى فى الواقع البقية الباقية من تراث ذلك الانسان الذى عاش فيما قبل التاريخ ؛ وسأسرد لك فى هذا المقال أساطير أهل المدنيات القديمة من مصر إلى الهند ، لترى بنفسك صحة ما ذهبت إليه من أنه : لما بزغت شمس المدنية الأولى فى مصر وبابل وغيرهما من الأمم المعاصرة ، كان الانسان قد قطع فى سبيل التفكير المعقول شوطا ـ ليس بالقصير ـ أوصله إلى معرفة فكرة الألوهية والآلهة ، ثم الاله الواحد الأحد ، وفلسفة الوجود والعدم ، وطبيعة الخير والشر ، وغير هـذا من النقط الفلسفية التى لم يكن فى مقدور عامة الشعب أن يتناولوها بالبحث ، ويتركوا الأساطير القديمة التى تأصلت فى نفوسهم حتى أصبحت جزءاً لا يتجزأ من عقولهم . لم يجد الكهنة بداً من الاحتفاظ بأسطورة العامة فتناولوها بيد المسخ والتعديل ، وأضافوا إليها الكثير من أسماء الآلهة التى تمثل المظاهر المتعددة للاله الواحد ، وصوراً رمزية وعبارات مجازية أخفوا وراءها أسطورتهم الجديدة ؛ وسترى أنهم استبدلوا فكرة اتصال الذكر بالأنثى بالعدم والوجود ، وغير ذلك من مظاهر الازدواج المادى والمعنوى — والحيوان الخالق بالآله الأكبر — وأضافوا فكرة خلق العالم على أدوار متعاقبة ، وإشراك الاله آلهة أخرى فى العمل معه ، ولكنهم احتفظوا كذلك ببيضة الوجود .

وأستطيع أن أقول إن الأساطير المتأخرة لا تختلف عن المتقدمة فى شىء ؛ إلا أنها صور ذات وجهين ، وجه تقرأ فيه الأسطورة المتقدمة ببيضتها وبذرتها ومائها والمتهافق شىء قليل أو كثير من التهذيب يتناسب مع حال واضعى الأسطورة من المدنية ، ووقت وجودهم فى تاريخ

---

(١) راجع « المعرفة » عدد مايو سنة ١٩٣٢

الانسانية — والثانية يطالع فيها الخاصة شيئاً من فلسفة الوجود التى وصلت إليها عقول القدماء .

مصر القديمة

لم يكن لمصر القديمة دين واحد يدين به سائر المصريين فى زمن واحد ، فقد كان لكل مقاطعة دين خاص وآلهة غير آلهة المقاطعات المجاورة ، ومن ثم تعددت الأساطير فى خلق العالم وتكوينه :

فبعض الأساطير تقول إجمالا : فى البدء كان هناك ظلام غير محدود اسمه آنور (الليل) يغطى فضاء الكون ، وهناك فى هذا الفضاء انتشر الماء والروح (بقوة الخالق) من غير نظام ، وفجأة أضاء النور الالهى ، فتكدست العناصر وترشحت تحت الرمل ، فخلصت من الأجزاء الرطبة وخلقت الآلهة مما بقى منها سائر الكائنات الحية والمدبرة الروح — والخالق الذى تشير إليه هذه الأسطورة ومثيلاتها هو (آمون رع) ، الذى يقول عنه الكهنة فى نشيدهم فى كتاب الموتى : (الطيب ، المحبوب ، صانع الناس ، خالق الوحوش ، ومبدع الكائنات العليا والسفلى) .

أما القصة التفصيلية فقد اختلفت فيها الأساطير اختلافاً سببه كثرة أسماء الآلهة المترادفة ، وكلها تتلخص فى أنه : فى الوقت الذى لم يكن فيه أرض ولا سماء ، ولا آلهة ولا أناس ، كان (أتمو) أبو العالم موجوداً قبل أن يوجد العدم أو الموت ، ورأى أنه فى حاجة إلى من يساعده فى مهمته ، فخلق من نفسه الاله (شو) الذكر ، والالهة (خنوت) الأنثى ، وفى رواية أخرى الالهين (فتاح أو بتاح ، وخنومو) ، وبكلمة فاه بها الاله (تحوت) عن رغبته فى خلق العالم بادر الالهان إلى تنفيذ أوامره ، فالأول أعطى (شو) — إله النوم ابن الاله الخالق رع — جسداً مادياً ليحمل به الشمس على كتفيه ، وخلق الثانى بيضة الشمس ، وأقيمت الأرض على عمدها الأربعة ، وغطيت بالسماء (نوت) ، ومن هذه تدلت النجوم بحبال القدرة ، وأخيراً خلق الانسان وشكل على مائدة كما يشكل صانع الفخار فخاره .

وهناك فريق من المصريين أرجعوا كل شيء حى وجامد إلى مادة أزلية قديمة وهى الماء فألهوه واعتبروا كل ما يخرج منه إلهاً يقدس حتى التمساح وفرس البحر .

وفى هذا تقول بعض الأساطير : كان الاله (تومو) يعيش فى الماء زمناً غير محدود ، ولما قام لأول مرة فى هيئة الشمس خلق من نوره ومن الماء كل شيء حى .

وهناك رواية أخرى للعامة لا تخلو من طرافة لما فيها من خيال رائع :

خلق الله الدنيا فى قطعتين ، الأولى سفلى وهى الأرض ، والثانية عليا ترتكز على أعمدة وهى السماء ، تسير فيها الشمس فى زورق من باب الشرق حتى تلج باب الغرب ، وهناك تنام

حتى مطلع الفجر ، وبهذه القبة مصابيح معلقة بحبال القدرة ، تختفي نهاراً وتظهر ليلا بكيفية لا يعلم سرها أحد ، ورأى الله أن عبء إدارة هذا الكون كله ثقيل فخلق منه آلهة أخرى تساعده ، فجعل الشمس إلهاً مستقلا سماه (رع) والقمر (تحوت) والأرض (خمت) والسماء (نوت) ، ثم خلق (أوزيريس) النيل،أو الماء الجاري ، فكان إله الخير،وزوجه من (إيزيس) أى الأرض ، فولدت له (هوروس) ابن الطبيعة الحية الجددة والخير المظيم الذى يحل بوادى النيل فى الفيضان عاماً بعد عام ، وسارت الأرض على هـذا السنن مدة حتى دب الخلاف بين الالهة والناس واستفحل الشر ، فهاجرت الآلهة إلى السماء واتخذت لها مكاناً خاصاً فى (امنتى) .

البابليون

ولأهل بابل أساطير لا تصل إلىما وصلت إليه أساطير مصر إجمالا أو تفصيلا،وإن وافقتها فى الجوهر ؛ بعضها يصور لك الاله الخالق (١) وهو يحارب التنين الأسود (رمز الظلام أو العدم) ويقتله،ثم يشطر جثته شطرين يتخذ أحدهما حاجزاً يمنع المياه العليا من السقوط يسمى (تيامات) ومنه (تامتو) بالبابلية ،البحر الخضم أو المحيط ؛ والبعض الآخر يعطيك صورة أخرى عن الاله (بعل) ، وهو يصنع الدنيا بيديه من طين المادة الأزلية ، ويشكلها على هيئة المخروط ، تحيط به السماء من كل جانب ، ويجعل له بابين تدخل الشمس من أحدهما كل صباح ، وتخرج من الثانى كل مساء ، (على مثال معتقد المصريين القدماء فى زورق الشمس) .

الآشوريون

واقتبس أهل أشور هذه الأسطورة القديمة بعد أن هذبوها وزادوها تفصيلا ، فقالوا : كان فى بدء العالم ماء ، ولم تكن هناك أرض ولا سماء ولا آلهة ، وخرج من الماء — بطريقة لا يعرفها أحد — آلهة ثمانية على رأسهم (مردخ) الاله الأعظم، فرأى مردخ أن يوزع آلهته السبعة فى أجزاء العالم ، فبنى الكواكب السبعة لسكناهم،وعين الشمس حارسا للنهار ، والقمر لليل ؛ ومكثوا هكذا مدة طويلة إلى أن طغى عليهم الماء الأسفل ، فأرسل (مردخ) ابنه ليقاتله ويرده إلى مكانه ، فعاد خائفاً مهزوماً ، فجمع (مردخ) باقى الآلهة فى مؤتمر ، وعرض عليهم أن يقاتل الماء بنفسه، بشرط أن ينصبوه عليهم ملكا مطلقاً، فعاهدوه على ذلك وحارب الماء حتى قهره وشطره شطرين:أحدهما منبسط وهو الأرض ، والآخر يغطيه وهو السماء ، ثم خطر فى ذهنه أن يخلق الانسان من دمه وعظمه ليسكن الأرض ويعمرها،فهب للعمل واستنفد هذا منه وقتاً طويلا ترك فيه الآلهة وشأنهم يخلقون من سائر الكائنات ما تصوره لهم عقولهم، وهكذا تم خلق العالم كله .

تجد إلى جانب هذه الأساطير القديمة مجموعتين رئيسيتين مختلفتين فى الجوهر بعض الاختلاف، أولاهما شرقية بحتة نشأت مستقلة، وهى تمثل آراء الصين والهند والفرس وغيرهم ، والأخرى

(١) مردخ اله النور ذاته ، أى النور المعنوى المنفصل عن الشمس

غربية تفرعت عن المصرية والبابلية عن طريق الفينيقيين، وتمثل الأساطير اليونانية والرومانية ثم اللاتينية ، وسنذكر أهم هذه الأساطير فى شىء من الايجاز غير المخل .

الصين

تقول الأسطورة الصينية المدونة فى أقدم الكتب : فى البدء كانت السماء مندمجة فى الأرض ، وكذلك النظام والفوضى ، أو الكمال والنقص كانا ممتزجين فى بيضة الوجود التى تحوى بداخلها كل بذور الحياة وأصول كافة الأشياء مختلطة ، ولما استقرت الحال بالبيضة بعد تجوالها فى الفضاء صعدت العناصر اللطيفة إلى أعلى وكونت السماء ، وهبطت الكثيفة إلى أسفل وكونت الأرض، وعند انفصالها تولد فى وسطهما الاله (كامى) ، ثم طفت على وجه الماء جزيرة لطيفة، نبت فيها شىء كجذر النبات، تجسد وتطور إلى أن صار الاله العظيم (كامى توكو كوتشى - نو ميكوتو) أى المحترم المقدس الذى يتكفل بالعالم .

ومن رواية أخرى ينقلونها عن كونفوشيوس نبيهم العظيم :

كان فى مبدأ العالم نار وماء رائق مائع ، تصلب من حرارة النار فصار أرضاً (وتعليل هذا أن الجبال والتلال تشابه من أعلاها أمواج البحار) ، أما النار فصارت ريحا ورعداً وبرقا (لأن هذه تشابه النار فى طبيعتها الشديدة المتقلبة ، ثم خلقت الشمس والكواكب ، وفى اتحاد الهواء والنور والظلام والعناصر الخمسة الأخرى تكون الانسان لأنه يماثلها فى عواطفه المتقلبة وطبيعته المتذبذبة .

ويختلف البوذيون عن هذه بعض الاختلاف فيقولون : فى البدء كان فى الهواء نور وظلام خلقت منه الأرض ، ولما كان الهواء بطبيعته خفيفاً ينزع إلى الصعود ، فقد حمل الكواكب ومنعها عن السقوط ، أما الأرض فسقطت فى الفراغ بحكم ما فيها من ماء ثقيل بطبيعته، ولذلك هى تدور وستظل تدور فى الفضاء ومعها باقى الكواكب والنجوم (وغريب أن يتفق هذا الرأى مع العلم الحديث) .

الهنود

أما الهنود فقد بلغ بهم الخيال حداً بعيداً فى إحدى أساطيرهم الشعرية القديمة فقالوا : إن براهما الصانع الأبدى مبدع العالم تكونت البحار من عرق جبينه ؛ وهو يخلق الأرض وانعكست صورته على سطح الماء ، فلما رآها أعجبه شكله فخلق الانسان على صورته (وهنا يحار المرء فى فهم حقيقة هذا الاله الذى لا يعرف شيئاً عن نفسه ولا صورته قبل أن تنعكس بالصدفة على سطح هذا البحر الكثيف) .

ولهم رواية أخرى هى آية فى الروعة والتصوير تقول : كانت المادة فى بدء الخليقة موجودة ولكنها كانت تسترخ تحت الماء فى أحضان اللانهائية ، وكان براهما مهندس العالم يجوب أرجاء الكون على ورقة من أوراق اللوتس تعوم على الماء فلم ير شيئا - على مدى بصره - غير الماء والظلام ، فاستصوب أن يخلق بذرة كبيرة أو بيضة تحوى كل عناصر الوجود، ولما كانت القوى

الالهية المعنوية ـ حسب رأيهم ـ تعجز عن الظهور والقيام بعمل ما إلا إذا تجسدت في ثوب المادة ، فقد اضطر الاله الصانع براهما أن يتخذ شكلا ماديا ويتجسد باسم (ياوش) الذكر الأول ، وعندئذ تجرد من قوته الالهية فانفصلت هذه وتجسدت هي الأخرى في شكل أنثى سماها براهما (براكرتي) أو الأم الطبيعة ، واتصل الذكر بالأنثى ، فكان من اتصالها بيضة ، وجمع براهما كل الذرات الأولية وأصول الوجود (التي تفرعت من جسد براهما لتصير بذرة العوالم الجديدة التي ستتكون من بيضة الوجود) ووضعها في البيضة ، وهنا زال الذكر والأنثى من الوجود المادي ورجعا إلى الحالة الروحية الأولى اللاجسدية ، ودخل الاله براهم (الكائن بنفسه) في البيضة تحت اسم وشكل جديدين فصار براهما ، وهناك مكث ينفخ الروح في المادة ويجمع العناصر سنة خلقية كاملة (وهي تعادل بحسابنا نحن ٣٠٠,٠٠٠ مليون سنة شمسية) .

وكانت البيضة العجيبة طول هذه المدة تطفو على سطح الوجود كالفقاعة في المياه اللانهائية ، وأخذت العناصر تتصل وتندمج وتنتقل من الفوضى المطلقة إلى بوادر النظام ، وجعلت تنمو وتضيء بالتدريج حتى بلغت شدة ضوئها قوة ألف شمس ، وهنا شاءت إرادة (براهما) القوى القادر أن يخرج من البيضة فحطم قشرتها وبرز منها في شكل جديد له ألف عين وألف رأس وألف ذراع ، وظهر معه جسم مادى آخر غير متناهي الأطراف ، ذلك لأن العناصر الأولى قد نمت وانتظمت وتجمعت ثم انقسمت إلى مجموعات منتظمة وانتهى بها الأمر إلى وحدة كاملة استحالت إلى دنيا جميلة تامة التكوين بشمسها وقمرها وأرضها وكواكبها .

ويزيدنا رجال الدين شرحاً : أن الدنيا هي الصورة الظاهرة للاله الخفي ، وأن عالم الوجود هو انسان : رأسه السحب وجسده الارض ، وشعر بدنه أشجار الغابات ونباتاتها ، وذقنه البرق ، وصوته الرعد ، وعيناه الشمس والقمر ، وعروقه الأنهار ، وأظافره الصخور ، وعظامه الجبال الشامخة ؛ وغير هذا مما يتمم الصورة الخيالية الرائعة .

أما أسطورة (مانو) فتتلخص في أن السيد الخالق الموجود بنفسه (قبل كل وجود) خلق المياه أولا ووضع فيها بذرة استحالت إلى بيضة من الذهب خرج هو بنفسه منها من جديد تحت اسم براهما مبدع العوالم بعد أن أتم خلق الدنيا ؛ وهي لا تختلف في جوهرها عن سابقتها . وهناك أساطير أخرى خاصة بالكهنة يحفظونها لا تفهم لكثرة ما فيها من التعقيد والفلسفة بحيث لا يفهمها إلا من كشف الله عنه ووصل إلى معرفة السر ؛ وتجدها في كتبهم المقدسة ، وخاصة في (ريج فيدا) ، ويكفي أن تعلم أنها تبدأ بهذا الطلسم الفكرى والقضية المعقدة : (في الأصل قبل خلق العالم لم يكن هناك وجود أو عدم ـ مادة أو غير مادة ـ شيء او لا شيء) .

وخلاصة القول أن الأساطير الهندية أضافت إلى تراث الأساطير الانسانية السابقة فكرة جديدة ، كانت نتيجة حتمية للتطور ، وهي خلق الدنيا بمشيئة الله تعالى وبمحض قدرته عندما وجد الوقت المناسب لابرازها ، وأنها تمت في فترة زمانية يعجز العقل عن تصور طولها إذا قيست بمقاييسنا نحن .

[للبحث بقية]

محمد مظهر سعيد